عينان صفراوان

• محمود سعيد*

بدا الجسدُ تحت الضوء الشاحب مَرْكزًا يبث هدوءًا مُشْبَعًا بالسكينة والرهبة، هدوءًا غضّن وجهَ الطبيب تعاسةً، بينما مسح انطباعٌ محايدٌ جامدٌ ملامحَ الممرِّض القصير. وكان مساعد الطبيب يغلي غيظًا، وعيناه تقدحان عصبيَّةً.

كان الجميع ينظرون إلى الجثَّة قرب باب الغرفة الثاني المفتوح على قسم داخليّ آخر من المستشفى، يصطدم به الرائح والغادي. لم يكن يَبِين من الجثَّة سوى قدمين معفَّرتَيْن بالتراب، تبدو أعصابهما صفراءَ باردةً، وأظافرُها الخشنة شديدةَ السواد تحت ظلفَيْن مشقَّقَيْن.

كانوا ينظرون إليها نظرةً عابرةً سريعة ثم يصدّون. أكان ذلك لأجل هذا الصبيّ ذي العينَيْن الصفراوَيْن الواسعتَيْن الجميلتَيْن؟

حدَّق الطبيب إليه: عيناه كبيرتان تملآن صفحة وجهه. أيُّ شجو عميق أشبه بغصّة خفيّة ضلَّتْ طريقها نحو التعبير! كان يجلس مقرفصًا تحت المسطبة، ممسكًا بالمسحاة يُسندها إلى الحائط تحت قدَمي الجثَّة. وعلى الرُّغم من أنَّه لم يتجاوز العاشرة بأيّ حال فإنَّه كان متماسكًا رابطَ الجأش، حتى إنَّه لم يذرف دمعة واحدة. لكنَّ نظراته لم تكن تَعْكس اللامبالاة. وكان الممرِّض ومساعدُ الطبيب دائبي الحركة في الغرفة، ينتقلان نحو بابيْهما المفتوحَيْن على الممرَّيْن المتقابلَيْن لينقلا تعليمات الطبيب إلى المراجعِين المتكدِّسين أمام البابَيْن. كثيرًا ما كانا يصطدمان بالمسطبة المتحرِّكة، فتنحرف قليلاً ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال عند أبسط صدمةٍ، فتنزل حافةُ اليشماغ الأسود عن الرأس فيَكْشف شعرًا أسود لما يستسلم كليّاً للمشيب، ودائرةً صغيرةً في أعلى اليافوخ تَلْمع خاليةً من الشعر، وجبهةً تبدو لشدّة نحافتها جمجمةً خاليةً من الجلد. حينها يَنْهض الصبيُّ، فيُسند المسحاةَ إلى الحائط، ويُنزل طرفَ اليشماغ على الجزء المكشوف بهدوء واحترام. وكان الطبيب ينظر إليه وإلى أبيه بين آونة وأخرى كما يفعل الآخرون، وكان يهمّ بأن يخبره شيئًا، لكنَّ التردُّد وزحمة العمل وتكدُّس المراجعين تؤخِّره.

أخيرًا استجمع الطبيبُ الشاب شجاعتَه. انحنى على الصبيّ وهو يطوي وثيقةَ الوفاة ويمدّها نحوه. تنهّد، وبصوت يهدِّجه الانفعالُ ويصبغ وجنتَيْه السمراوَيْن بحمرة خفيفة، قال:

ـ حافظْ على هذه الورقة. لا تضيِّعْها. إنَّها مهمّة. لا يسمحون لكم بدفن الجثَّة من دونها.

فوجئ الطبيب بحركة الصبيّ السريعة. فقد نهض، وعدَّل دشداشته المرقّعة التي فقدتْ لونَها الأصليّ فباتت بلون الرماد، ثم وضع الرسالة في جيب الدشداشة الأيمن تحت الحزام مباشرةً، بينما كانت المسحاة في يده اليسرى وعيناه مسمرَّتَيْن على عينَي الطبيب باهتمام. توقَّف الطبيب برهةً، ثم أضاف وهو ينتقي ألفاظه:

ـ خذْ والدَك واذهب.

قال ذلك وتنهّد بارتياح. ظلَّت عيناه متعلِّقتين بالصبيّ، الذي ما إنْ سمع كلمات الطبيب حتى استدار، فأَسْند المسحاةَ إلى الجدار مقابل رجلَيْ والده المسجَّى. توجَّه نحو المسطبة. أحاط الجثَّة بذراعَيْه الهزيلتَيْن ليرفعها من فوق المسطبة، فسقط اليشماغُ عن الوجه المتعَب، وانفجرتْ عينا الميت الصفراوَيْن مفتوحتَيْن على لامبالاة راسخة. دمعتْ عينا الطبيب من تحت نظّارتَيْه الطبيَّتَيْن. لمس كتفَه بحنوّ:

ـ لا.. ليس هكذا.. إذهبْ واجلبْ سيارةَ أجرة. لا تستطيع حمله على كتفك. سنساعدكَ على نقله إلى السيارة.

تراخت يدا الصبيّ. وعدَّل وضع اليشماغ على رأس أبيه. نظر إلى الطبيب، فالتهبتْ في الحدقتيْن شرارةُ أسئلةٍ محيّرة، بينما ظلّ اللِّسانُ معقودًا. فخيَّل إلى الطبيب أنَّ الصبيّ أخرس، لكنَّه استبعد ذلك؛ فهو يسمع ويطيع الأوامر. لكنْ لِمَ لا يَنْطق؟

ظل واقفًا يحدِّق إلى الطبيب، كأنَّه ينظر إلى مخلوق غريب. لم يكن الطبيب وحده هو الغريب بالنسبة إليه، ولا بنايةُ المستشفى الضخمة، ولا هؤلاء الناس المتجمهرون الذين يفترسونه بنظراتهم، ولا السيارات بكثرتها وسرعتها. لقد كانت الدنيا كلُّها غريبة، بما فيها وما عليها. حتى تصرُّفُ أبيه معه هذا الفجر كان غريبًا كلَّ الغرابة. فقد أيقظه والظلامُ سائد:

ـ اغسلْ وجهَكَ.

رمى على وجهه كفَّ ماء باردٍ من الطست الموجود داخل الصريفة كي لا تلعقه الكلاب. تَبِعَ والدَه والنعاسُ يثقله، ولم يتخلّص من جذور السبات

---

* ـ كاتب عراقيّ. من مؤلَّفاته رواية **زنقة بن بركة**. يعيش اليوم في السويد، بعد الإمارات.

• محمود سعيد

إلاّ بعد أن قطع جزءًا كبيرًا من الطريق. وإذ بدأتْ أبنيةُ المدينة ترتسم في غبشٍ هلاميّ يظلّل قوسَ الكون، بان الجسرُ الكبير، فمئذنةُ الجامع السامقة التي لم يبدُ منها أولَ الأمر سوى هلالها، ثم لهبُ ودخانُ مصفّى الدورة. ومع إشراقة الفجر اتّضحت الأمور: أول سيارة رآها كانت برازيليّةً حمراء متّجهةً نحو الحلّة، تكدّسَتْ داخلها عائلةٌ كاملة. كان أبوه يكلّمه، لكنّ خطوه كان قصيرًا على غير عادته؛ أكان يعرف أنّه سيموت؟ ألهذا أخذه معه؟ إنْ كان يعرف، فلِمَ فضّلَ أن يموت بعيدًا عن البيت؟ لماذا قال له:

ـ أنت رجل. الرجل لا يبكي ولا يستجدي.

نظر إليه أبوه بابتسامة كبيرة عندما لحظه يضيّق الحبلَ على بطنه. قال:

ـ اصبرْ وستنسى الجوع. لا تضيّق الحبلَ. ستؤذي نفسَك.

صَدَقَ والده. فبعد بضع خطوات كاد الحبلُ يَقْطعه نصفيْن. كان والده يقرأ داخله: فقد عرف أنّه جائع، لكنّه كان رجلاً، والرجل يصبر على الجوع والحرّ والأذى ولا يبكي ولا يستجدي.

كان الشارع خاليًا إلاّ من بعض سيارات البيك آب القادمة من الحلّة وكربلاء محمّلةً بالخضار والفاكهة. وكانت كلماتُ أبيه وحدها تَعْمر السكونَ المتكدّسَ في الفضاء الرحب:

ـ لن يتخلّى اللّه عنا. هذا هو اليوم السابع. لن يَتْرك عبدَه سبعةَ أيام دون طعام. لماذا نحن خَلْقُه إذًا؟ أليس كذلك؟ ماذا تقول؟

ردّد الصبيّ كالببغاء، من دون أن يفهم. حدس أنّ والده يريد أن يقول: «نعم صحيح.. لماذا نحن خَلْقه إذًا؟»

ـ أخَلَقَنا لنموتَ من الجوع؟ لا سبحانَك يا ربّ.

ـ لا...

كان يردّد ما يقوله أبوه، وكان واثقًا بأنّ اللّه لن يتركه من دون عمل بعد ستة أيام من الخيبة.

عندما يستيقظ صباحًا لم يكن يرى والده. كان يَحْمل كيسَه الفارغ ويتّجه إلى سوق الخضار المركزيّ في السيديّة، يلتقط أوراق الخسّ وما يرميه الباعةُ من رشاد وكرفس وكراث ومعدنوس وبصل وأيّ شيء يؤكل. البارحة عَثَرَ على نصف بطيخة خضراء. لماذا نصف بطيخة؟ ماذا فعلوا بالنصف الثاني؟

ولكن على الرُّغم من جهوده فإنّ أباه وحده كان يجلب النقودَ التي يمكن أن يُشترى بها الدقيقُ. وها قد مضتْ ستةُ أيام لم يجد فيها أيٌّ عمل. فاختفى الدقيق منذ ثلاثة أيام، وخضارُه وحبيباتُ التمر التي تلتقطها أمّه وأخوه الصغير من البساتين لا تُسند النَفْس وتُبقي المرءَ في جوع دائم.

أأخذه معه اليوم لأنّه متأكّد أنّه سيعمل؟ ألأنّ اللّه لا يتركه بلا عمل سبعة أيام؟ ألأنّه أراد أن يعمل معه فيتضاعف الأجرُ؟ لو تم ذلك لكان فرحةً ليس لها مثيل: ضمانَ خبز لبضعة أيام، وبلوغَه مبلغَ الرجال.

وصلا ساحة عرض العمل. جلسا في المكان المخصّص للعمالة ـ المسطر ـ على رصيف الشارع أمام دلالة الخليج العربيّ التي أغلقتْ أبوابها بعد هروب المسؤولين الكبار بيوم واحد، وعلى بعد عشرة أمتار من مظلّة نقطة الشرطة في الزاوية التي تشكّل بؤرةَ تقاطع الشارعَيْن. علم أنّهم كانوا ممنوعين من الجلوس هنا قبل الهروب، فكانوا يضطرُّون إلى الجلوس في الضفة الثانية من الشارع حيث تواجههم شمسُ الصيف تشوي وجوهَهم. ثم جاء شابٌ طويل القامة أسمر ممتلئ عَلِمَ أنّه محامٍ، وبعده جاء مدرّسان وأربعةُ معلّمين وموظفون كثيرون آخرون، وتبعهم عمالٌ آخرون بشكل متفرّق، زادوا على الثلاثين بالرُّغم من كون اليوم جمعة.

المحامي هو الذي اقترح تبديل المكان؛ كَسَرَ حاجزَ الخوف من أصحاب محل الدلالة الذين كانوا يستندون إلى الهاربين. فكانت فرحتهم ذلك اليوم أكبر من أن تُصدَّق، لأنّهم لأوّل مرة استطاعوا أن يسبّوا المسؤولَ الهاربَ علانيةً، ويسبّوا عشيرتَه، وأهلَه الأقربين والأبعدين.

جاءت سيارة بيك آب متداعية. حدّق السائق إلى العمال الذين تجمّعوا وكوّنوا دائرة متلاحمة. كانوا يصيحون كلّهم، يندفعون نحو السائق في الوقت الذي يَسْحب أحدُهم الآخر نحو الخارج. وحده أبوه لم ينزل، لم يتدافع، لم يَسْحب أيَّ شخص ليحلّ محلّه، لم يصرخ، بل قال له:

ـ أَسْمِعْهم بصوت عال. قُلْ: اثنان بأجرة واحد.

ظلّ الصبيّ يقفز ويصيح حتى بُحَّ صوتُه، بينما اكتفى أبوه بالتلويح بالمسحاة.

عندها أدرك لماذا جاء به معه. رآه يسير بصعوبة، يتوقّف بين مسافة وأخرى ليأخذ نفسًا عميقًا. أكان لذلك علاقةٌ بالموت؟

رجع العمّالُ إلى رصيف الشارع بخيْبةٍ غطّى عليها بعضُهم بالضحك والتنكيت:

ـ اثنان بأجرة واحد.

ضحك كثيرًا وهما ينظران إليه وإلى أبيه. شابّان في العشرينيّات، أحدُهم يرتدي قميصًا رمّانيّاً مثقوبًا في أعلى الكتب، والثاني حافٍ لفَّ رجلَه اليسرى بشاش اتّسخ أسفلُه. علّق أحدهما:

ـ لِمَ لا نقول نحن كذلك؟ اليوم جمعة، والعمل قليل.

لم يشعر بأيّ حرج للمز الشابَّيْن. كان يفكّر بالجوع الذي يُفتّت أحشاءه، وبالسوق المركزيّة للخضار التي لا تبْعد إلاّ قليلاً؛ لو كان هناك لالتقط حبّة طماطم ساقطة، حبةَ باذنجان، حبّةَ لفت، لاستغفل بائعَ تمرٍ فسرق منه بضع ثمرات.

أخذت الشمسُ تعربد. بدأ العرق ينزّ. ثم أخذ الجمع يتفرّق. جاء شيخان تجاوزا الستين، وضعا علبَ السكاير على بسطة أمام الدلالة، ثم انسحبا إلى سياجها، فقرْفَصا في ظلّه سادريْن بحديث لا ينقطع. توقّف قربَهم مراهقٌ مع عربة يد مليئة بزيوت المحرّك، وأخذ ينفض بذلةَ عمله المبقّعة بالدهون. لم يبق من طلاّب العمل سوى الشابيْن الساخريْن. عندها طلب منه أبوه أن يجلب شربة ماء له. أشار إلى بيتٍ عبر الشارع، ذي واجهة ضخمة مكوّنة من عدّة أعمدة عالية. كانت الدار جديدة، وعلى يمين الباب كان ثمّة ضوء من نور الشمس اللاهب. أوصاه أن يدقّ الجرس دقةً واحدةً فقط كي لا يُزعج أهلَ الدار. عند رجوعه إلى الصريفة تحت شمس الظهيرة التي تذيب الأسفلت والعظامَ والوجودَ كان لا بدّ أن يدقّ جرسَ غير باب، يَطْلب شربةَ ماءٍ لا تلبث أن تخرج مع العرق في أقلّ من ثوانٍ لتبلل دشداشته البالية. التماسُ الماء من الأغراب لم يكن عيبًا، أمّا الطعام والنقود فلا: «الرجل لا يبكي ولا يستجدي..!» «لا نزال بخير والحمد لله...»

فتحتْ بابَ السياج الأسود العريض امرأةٌ في الخمسين، بدت تلوك لقمة. كانت بيضاء، جميلةً، شعرُها قصير، يختلف عن شعر أمّه الذي تجْدله بحبلَيْن مغبرّيْن ثخينيْن ينزلان على الصدر بلونهما الترابيّ الكامد. شَعْرُ هذه المرأة كستنائيّ، يشعّ. فستانُها زاهي الألوان، بشرتُها ناصعة كالحليب. كان الممرّ من السياج حتى الباب الداخليّ نظيفًا يزهو بلمعان برّاق مرمرُه الأصفرُ تحت ضوء الشمس. كانت هناك حديقتان جانبي الممرّ تغفوان ببرودة منعشة أعقبتْ رشَّهما بالماء. كل شيء كان نظيفًا بارقًا جميلاً. غير أنّ المرأة كانت أجمل ما في الكون. عيناها كستنائيّتان واسعتان، وبهاءُ تقاطيعها سناءٌ زاهٍ يَشْمخ نحو عنان السماء. تسمّر في مكانه، فاقدَ الوعي. غمرتْه ضعةٌ شاملة: فمجرّد وجوده هنا يلوّث هذه البيئة والنظافة، ويحطّ من السموّ. حدّق إليها، فابتسمت ابتسامةً خفيفة. ازدادتْ جمالاً وهيبة، وازداد وَجَلاً. احتُبس لسانُه. لم يَفُهْ بأيّ كلمة. عيناه الصفراوان الواسعتان وحدهما كانتا تعبّران. قالت:

ـ أُدخلْ.. لا تَخَفْ.. تعال.. أَغْلِق البابَ وراءك.

لم يصدِّق أذنيه. خطا خطوتين متردِّدتَيْن. وبعد غياب قصير خرجتْ وفي يدها رغيفُ خبز وصحنٌ فيه جبنٌ وريحانٌ مغسول.

ـ اجلسْ هنا.

استيقظ جوعُه من جديد. حتى تلك اللّحظة كان الشكُّ يسيطر عليه.

ـ اجلسْ.. كُلْ..

لم يدر كيف أكل، وبأيّ نهم! أيّ لذة! لم يأكل أطيبَ من هذه الوجبة، على الرُّغم من أنّه لفرط جوعه عضّ لسانه. حتى الشاي كان لذيذًا جدًا. بعد ذلك رجع وبيده كأسٌ زجاجيّةٌ فيها ماء بارد. **أين الكأس؟ مَنْ أخذها بعد موت أبيه؟ ماذا ستقول المرأة؟** عندما رجع وجد أباه ميتًا، ومن دون أن يشرب الماء.

الإمارات